أفانين

أثر الايحاء فى جلب التفاؤل

للأســـتاذ على الجندى

— ٢ —

أوردنا فى مقال سابق أمثلة للايحاء الذاتى، كانت سبباً فى ردّ التشاؤم عن أصحابها ، وجلب التفاؤل إليهم

وسبيلنا فى هـذا المقال أن نسوق شواهد طريفة للايحاء الخارجى ، أى إيحاء الإنسان إلى غيره

وطرافة هذه الشواهد أن جلها يل كلها وقعت عفو البديهة ومسارقة الخاطر ! ولولا ذلك ما كان لها هذا الأثر الذى يشبه فعل السحر ! لأن مجىء الإيحاء فى وقته أشبه بمعالجة المرض إبان طروئه . هذا إلى أن ذلك يطبعه بطابع الإلهام العلوى والنفحات اللّدنية ! ويجعل له وقع البُشريات التى تنفرج عنها سجوف الغيوب فى الحين بعد الحين !

وطبيعى أن هؤلاء السحرة أو الرُّقاة ـ على الأصح ـ الذين استطاعوا أن يتلمّسوا بالنفوس ، فأروْها النحوس سعوداً ، والسواد بياضاً ! واستنقذوها من القلق والشك والارتماض ، لم يكونوا إلا جماعة من أهل اللسن والبيان ! ومن أقدر من أهل اللسَن والبيان على قلب الحقائق والتصرف فى أهواء النفوس ؟ وإن من البيان لسحراً !

بل الحق أن البلاغة وحدها لا تغنى غناءها فى هذه المواقف المتضايقة ، ما لم تسعدها شدة العارضة ودقة الفطنة وحسن التأنى وبراعة الاحتجاج وقوة التعليل

وسنذكر هذه الشواهد فيما يلى مرتبة بحسب الزمن قدر الاستطاعة :

١ — بنى عبد الملك بن مروان[1] باباً من أبواب المسجد الأقصى ببيت المقدس ، وبنى الحجاج باباً إلى جانبه ، فذرت صاعقة فأحرقت باب عبد الملك ، فتطيّر بذلك وشق عليه ! فبلغ ذلك الحجاج فكتب إليه : بلغنى كذا وكذا ، فلْيهن أمير المؤمنين أن الله تقبّل منه ! وما مثلى ومثله إلا كابنىْ آدم إذ قرّبا قرباناً ، فتُقُبّل من أحدهما ولم يتقبّل من الآخر

فلما وقف عبد الملك على الكتاب سُرّى عنه واستبشر

قال صاحب المثل السائر : وهذا معنى غريب استخرجه الحجاج من القرآن الكريم ، ويكفى الحجاج من فطانة الفكرة أن يكون عنده استعداد لاستخراج مثل ذلك

٢ — خرج المنصور العباسى إلى قتال أبى يزيد الخارجى فى جماعة من الأنصار . فلما واجه الحصن سقط الرمح من يده ، فأخذه بعضهم فمسحه وقال :

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

فضحك المنصور وقال : لم لا قلت : فألقى موسى عصاه ؟

فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، العبد تكلم بما عنده من إشارات المتأدبين ، وتكلم أمير المؤمنين بما أنزل الله على النبى من كلام رب العالمين

فكان الأمر على ما ذكر ، فأخذ الحصن وتم الظفر للمنصور

٣ — قلّد المأمون[2] خالدَ بن يزيد بن مَزْيد ولايةَ الموصل ، فمر خالد ببعض الدروب فاندقّ اللواء ! فاغتمّ خالد بذلك وتطيّر منه ! فقال أبو الشمقمق :

ما كان مُنْدَقُّ اللواء لطيرةٍ نُخشَى ولا سوء يكون معجّلا

لكنّ هذا العُودَ أضعفَ مَتْنَهُ صِغَرُ الولاية ، فاستقلّ الموْصِلا

ففرح خالد ! وكتب صاحب البريد بذلك إلى المأمون ، فزاده ديار ربيعة ، وأعطى خالدٌ أبا الشمقمق عشرة آلاف درهم

٤ — كان المنصور[3] بن أبى عامر الأندلسى إذا سار لغزوة ، عقد لواءه بجامع قرطبة ولم يسرْ إلى الغزوة إلا من الجامع

فاتفق أنه فى بعض حركاته للغزو ، توجه إلى الجامع لعقد اللواء ، فاجتمع عنده القضاة والعلماء وأرباب الدولة ، ورفع حامل اللواء اللواء ، فصدم ثريّا من قناديل المسجد فانكسرت على اللواء ، وانسكب عليه زيتها ! فتطير الحاضرون من ذلك ، وتغير وجه المنصور !

(١) المثل السائر ١٢٧

(١) العمدة (١ — ٤٠)

(٢) ثمرات الأوراق (١ — ١٥٣)

فقام رجل وقال : أبشر يا أمير المؤمنين بغزاة هيّنة وغنيمة سريّة ! فقد بلغت أعلامك الثريا ، وسقاها الله من شجرة مباركة !

فاستحسن الحضور ذلك ، وكانت هذه الغزوة من أبرك الغزوات !

٥ — كان سيف الدولة[1] بن حمدان ، قد ضرب خيمة كبيرة عجيبة الصنع (بتيسا فارقين[2]) فهبت ريح شديدة فقوضتها ، فتكلم الناس فى ذلك وأكثروا ، فقال المتنبي :

أيقدح فى الخيمة المُذَلَّلُ ... وتشمل مَنْ دهرَها يشمل
وتعلو الذى زُحَلٌ فوقه ... مُحالٌ لعمرك ما تُسْأل
تضيق بشخصك أرجاؤها ... ويركض فى الواحد الجحفل
وكيف تقوم على راحةٍ ... كأن السحاب لها أنمُل
فلا تنكرنّ لها صرعة ... فمن فرح النفس ما يقتل
ولو بلغ الناس ما بُلِّغت ... لخانتهمو حولك الأرجل
ولما أمرت بتطنيبها ... أشيع بأنك لا ترحل
فما اعتمد الله تقويضها ... ولكن أشار بما تفعل
فما الماندون وما أمّلوا ... وما الحاسدون وما قوّلوا
هم يطلبون فمن أدركوا ؟ ... وهم يكذبون فمن يَقبلُ ؟
وهم يتمنوْن ما يشتهون ... ومن دونه جدُّك المقبل

٦ — كان أبو إسحاق[3] ابراهيم بن عبدالله البحترى يوماً عند أبى المسك كافور الأخشيدي ، فدخل عليه الفضل بن عباس فقال : أدام الله أيام سيدنا الأستاذ (بخفض أيام وحقها النصب) فتبسم كافور إلى أبى إسحاق البحترى ! فقال مرتجلاً :

لا غرو إن لحن الدعى لسيدنا ... وغص من هيبة بالريق والبهر
فمثل سيدنا حالت مهابته ... بين البليغ وبين القول بالحصر
فإن يكن خفض الأيام من دهش ... من شدة الخوف لا من قلة البصر
فقد تفاءلت فى هذا لسيدنا ... والفأل مأثرة عن سيد البشر
بأن أيامه خفض بلا نصب ... وأن دولته صفو بلا كدر

٧ — كان لعضد الدولة[4] أحد الرؤساء ابن خُلِعَ عليه خلعة سنية ، وركب إلى منزله — والناس بين يديه — فعثرت[5] به فرسه فسقط من فوقها ، ثم ركبها ثانية من ساعته ، فلهج الناس بالقول فى الطيرة ، فقال الوجيه[1] الشاعر :

لا تعذل الفرسَ التى عثرتْ ... بك أمسِ قبل سماعك العذْرا
قالت مقالاً لو علمتَ به ... لم تولها لوماً ولا هجرا[2] :
لما رأى الأملاك أنّ على ... مرجىَ فتى أعلى الورى قدْرا
رفعتْ يدى حتى تقبّلها ... شفقاً بها فهوت يدى الأخرى

٨ — كان[3] السلطان حسن الناصرى المصرى يريد أن يبنى لمدرسته (مسجد السلطان حسن) أربع منائر . فلما بنيت ثلاث منها سقطت المنارة التى على الباب ، فهلك تحتها ثلاثمائة من الأيتام الذين كانوا يقرءون القرآن وغيرهم من الناس !

فتحدّث الناس أن هذا نذير بزوال الدولة ! فقال فى ذلك الشيخ بهاء الدين السبكى :

تلك الحجارة لم تنقضّ بل هبطتْ
من خشية الله ، لا للضعف والخَلَل
وغاب سلطانها فاستوحشت فرمتْ
بنفسها لجوّى فى القلب مُشْتعِل
لا يقرب البؤسُ بعد اليوم مدرسةً
شيدْتَ بنيانها للعلم والعمل
ودمت حتى ترى الدنيا بها امتلأتْ
علمًا ، فليس بمصر غير مشتغل

ومما يتصل بهذا وإن لم يكن منه أن الناجم دخل على ابن الرومى ، وهو ينظم قصيدة فى مدح أبى العباس المرندى ويهنئه بابن وُلِدَ له ، وكان أول القصيدة :

شمسٌ وبدرٌ ولدا كوكبا ... أقسمت بالله لقد أنجبا

فقال الناجم : لو تفاءلت لأبى العباس بسبعة من الولد لأن معكوس أبى العباس : أبو السابع ، إذاً لجاء المعنى طريفاً ! فقال ابن الرومى :

---

(١) ديوان المتنبي
(٢) مدينة بإقليم ديار بكر
(٣) زهر الآداب (٣ — ٣٧)
(٤) غير عضد الدولة بن بويه
(٥) معجم الأدباء (١٧ — ٦١)

(١) مثل ذلك قول ابن حيوس فى محمود بن نصر وقد زلت قوائم فرس كان تحته :
حاشا لأشقرك الميمون غرته ... يزل ، والفلك الدوار خادمه
وإنما عين الأملاك ساجدة ... إلى علاك فلم تثبت قوائمه
(٢) بفتح الهاء : القطيعة . وبضمها : القول الفاحش . وكلاهما محتمل
(٣) زهر الآداب (٢ — ٨)

١ ـ تأمـــلات

في يوم سبت من يناير من عام منصرم تحركت عاطفة مكنونة فإذا هي تضطرم ، وإذا ظرفها الطارئ يطبع أربعة عشر عاماً من حياتي بطابع خاص . كانت العاطفة في غضونها مودة فحسب، اشتدت حيناً وفترت أحياناً ، وتفاوتت درجاتها بتفاوت الظروف لكنها بقيت مودة يغذيها ميل وألفة وجميل وعرفان ؛ حتى كان يوم السبت ، فحالت العاطفة شيئاً آخر بدأ غبطة يكتنفها ذهول واستسلام ؛ ثم تنبه القلب إلى زائر جديد لا يعرف الاستئذان واستقر بين الضلوع شيء نسيت على مر الأيام اسمه ، فأحسست اليوم فعله ، وكان جارفاً ، أطار كل شيء من لب ونوم ، وبسط على نفسي الهادئة سلطانه ، فاضطربت واضطرمت ، ولم تك تدين من قبل لسلطان كهذا يشبه البُحران

ومضت بين السبت والسبت سبعة أيام ، لزمت فيها الفراش

وقـــد تفاءلتُ له زاجرًا ... كنيتَه ، لا زاجرًا ثعلبا
إني تأمّلتُ له كُنيةً ... إذا بدا مقـــلوبها أعجَبا
يصوغها العَكْسُ أبا سابع ... لا كذَب اللهُ ولا خيَّبا
بل ذاك فألٌ ضامنٌ سبعةً ... مثل الصقور استشرفت مرقبا
يأتون من صُلب فتًى ماجد ... وذاك فألٌ لم يَعُدْ مُعْطبا
وقد أتى منهم له واحـــدٌ ... فَلْنَنتظرهم ستّة غيَّبا
في مـــدة تثمرها نعمةٌ ... يجعلهـــا الله له تُرْتَبا(٢)
حتّى نراه جالسًا بينهم ... أجلُّ من رضْوَى ومن كبكبا
كالبدر وافى الأرض من نوره ... بين نجوم سبعة فاحْتَبَى
وليُشكر النّاجمُ عن هـذه ... فإنها من بعض ما نَوَّبا
سَدِّي وَألحتُ أخٌ لم أزَلْ ... أشكر ما أسْدى وما سَبَّبا

هذه الشواهد وما قبلها تدل دلالة واضحة على أن التفاؤل والتشاؤم من عمل الإنسان نفسه ، وأن المصاب بمرض التطير يستطيع بقوة الإرادة ، واصطناع الرجاء ، والنظر إلى الحوادث بمنظار أبيض وهاج ، في ظل الثقة بالله وبشاشة الإيمان ، أن يبرأ منه برءًا تاماً ، ولله الخلق والأمر .

علي الجندي

(١) بضم التاء الأولى وفتح الثانية وضمها . من معانيها : الأبد والشيء المقيم الثابت (هامش شرح المفصل للزمخشري)

يومين ، ومخدعي ثلاثة ، وحرت في بقيتها بين البيت والمكتب ، تارة آلم ، وتارة أنعم ، وطوراً تفترسني كآبة تبيت معها قوتي ضعفاً ، ولا أملك أن أرفع فيها جفناً . أما طبعي الذي لم يبال في حياتي أحداً ، فخانني هذه المرة ، فكففت عن أن أكون ما كنت

كنت أحب الوحدة ، والظلام الذي لا يقربه الخفاش ، لأنه تضيئه التأملات . وكنت أوزع مودتي على غير واحد من بني البشر ، وأحس الميل الجامح إلى غير واحدة بين بناتهم . فلم أعرف في التوزيع غير القسطاس . وكنت أعجب أحياناً كيف أحب الناس هذا الحب العادل ، وكيف أتحرر إلى هذا الحد من سلطان التحيز والتحامل ، لكني هذه المرة قد اضطرب ميزاني ، فإذا بي أميل إلى ناحيته كل الميل ، وإذا تلك التي رجحت كفتها تستبد بي من دون أن تعلم ، وتستحوذني على عظم جرمي في طي إشارة لو شاءت ، وهي بعد لم تشأ ولم تدر . بل قل : إنها تدري ولكن لا تدرك . وكيف تدرك وهي تعبث ، والأمر عندي جد وهي تلهو ، وأنا جدُّ حزين ؟

ما بك يا فتاتي ! الشباب الذي ترفلين في غفلته ، وتخطرين في روعته ، وتمر فيه نظراتك واهنة ، فتصمى مع هذا إصماء السهم ؛ ثم لا شيء في ذهنك غير الفراغ ، وكل شيء يضطرب به ذهني ، ويدمى ، ويتألم ...

أأحسست دفء الإيمان في راحتي حين احتوت راحتك الدافئة بدم الشباب ؟

إذن فدعيني أذكر لك يا فتاتي بعض الذي بي : أحبك حبًّا خالط كل حواسي ، فأنا أبداً على ذكر منك ، وأنت على مرأى ومسمع مني

رسمك أبداً ماثل لعيني ، حاضر في ذهني ، فأنا في الحياة أعيش بك وأنساق بإرادتك . أكون مع الناس جميعاً في كل مكان ، ولا أكون إلا معك ... الغبطة التي تطغى على مصدرها أنت ؛ والألم الذي يهد كياني مبعثه أنت . والمشاعر على اختلافها تتناوبني منك ولا أملك أن أشعر لنفسي وبإرادتي

أتحبين يا فتاتي أن أصارحك بما ساورني ليلة أمس ؟ إن نظرتك الواهنة التي خلتك تؤثرينني بها نظرة للجميع ، فهي من هذه الناحية عادلة وهي مما خلاها ظالمة خادعة

إنك يا فتاتي لغز ، ميزتك الكبري جاذبيتك ، فأنت تجذبين محبيك ومبغضيك على السواء . ولا يملك المرء ألا يكترث لك

ليس جمالك بالفاتن ولا بالذي يلفت النظر . وقد تمرين بالألوف من دون أن تسترقي أحداً ، وتمر بك الألوف مر الكرام . لكن كيانك جميل كل الجمال ، فاتن كل الفتنة ، ولا بد من الوقوف عندك والتأمل فيك ليعلقك من يشاء ومن تشائين، ويأسره منك إلى الأبد تلك النظرة الواهنة ، والابتسامة الحائرة ، والوجه الذي لا يمتاز بشيء في تفاصيله ولكنه في جملته وحدة أخاذة

ما قولك يا فتاتي فيمن ظل أربعة عشر عاماً على رأي واحد فيك ، وميل واحد نحوك ، وكنت في خلالها طفلة في العاشرة ، وزهرة في الرابعة عشرة ، وثمرة شهية في العشرين ، فما فكر في غير الحدب عليك ، واستنشاق عبيرك ، والتطلع إليك . لكنه لم يقطفك ولم يخنك

كانت زهرتك تغري بالقطف ، لكنه كان فيك ما يرد الأيدي عنك . وكانت ثمرتك ناضجة شهية ، لكنها كانت الثمرة المحرمة . وكنت عزلاء إلا من ذلك العفاف الذي ينبعث من كيانك طهراً وبراءة

ثم سددت يوماً إلى قلبي نظرتك المعهودة وفيها بريق غير معهود ، ومعها حاشية طيعة من الضحك الواهن الغالب عليه الحياء . وألفيتك في مجلسي مرحة قد وسع فهمك مغازي الكلام ، ودقت إجاباتك عليها

ثم ظللت جبينك العالي غمامة فأطرقت رأسك ، واحتوتك كآبة وخفت صوتك ، وكان سكون طال عليه الزمن أو قصر لا ندري ، أو على الأقل لا أدري

واحتوت راحتك راحتي فإذا هما شملتان ، وحاولت أن أحدق في عينيك فلم ترفعيهما إليَّ ، وألقيت عليك كلمة من عفو الساعة فلم تردي عليَّ

ولبثنا هنيهة على هذه الحال من الصمت فإذا نحن نتساءل معا : هل أسأت إليك ؟!

وكيف تسيئينني يا فتاتي وقد أشعرتني الهناء الذي كنت أحوِّم حوله أيام الشباب ولا أناله ، حتى كان يوم السبت من يناير من عام منصرم تخلقتني خلقاً آخر يدين لك بالوجود

(م . د)

عرفان الجميـــل

نهضت للقائه وقد أقبل عليّ هاشّاً محيياً ، وصافحته شاكراً له تحيته مجيباً عليها بأحسن منها ، وجلست وجلس وهو يحمد الظروف التي جمعت بيننا في القرية على غير انتظار

وكان يعلم أني لا تتاح لي فرصة للمجيء إلى القرية إلا اغتنمتها فمال بالحديث إلى ذلك المعنى ، وأخذ يبدئ ويعيـد في بيان مبلغ كرهه للقرية ، وهو لن يرى أبلغ من أن يقول إنه يكرهها بقدر ما أحبها ؛ وإنما يجيء إليها مضطراً في بعض عمله ثم يغادرها بأسرع ما يستطيع

ولـما كنت أفهم العلة الحقيقية لتلك الـكراهية لم أشأ أن أناقشه فيما أبداه من غيرها من العلل الزائفة ، بل لقد ثقل عليّ كلامه وأنكرت ما يفيض به من تكلف سخيف وما ينطوي عليه من خبث بغيض

ورأيته يبالغ في الحذر على ملابسه أن يعلق بها التراب فهو لذلك يمسحه عنها بمنديله بين آونة وأخرى لا يمل ذلك ولا يفتر عنه ؛ وكيف يطيق أن يرى الغبار على حلته (الإفرنجية) ، وإنه ليزهى أكبر الزهو بأن يخطر فيها على أعين الناس في القرية يذكرهم بها كيف أنه أصبح ذلك « الأفنـدي » الوجيه الذي لا يقل في وجاهته وعظمته شأناً عن سراة القرية ووجوهها . ولعل هذا المظهر الذي تبتهج له نفسه هو وحده الذي يجعله يطيق البقاء يوماً أو بعض يوم في تلك القرية

وقطع علينا الحديث قدوم شيخ أربى فيما قدرت على الستين يتوكأ على عصا غليظة ، ويكاد من الضعف لا تقوى على حمله رجلاه ، ولم يكن ذلك الشيخ المتهدم إلا والد ذلك الأفندي الوجيه ؛ ونهضت أستقبله مظهراً له حفاوتي به ؛ وعجبت أن أرى ابنه يقف متثاقلاً متباطئاً ؛ وأسند الرجل عصاه إلى أحد المقاعد وهمّ ليجلس على الأرض فأمسكت بيده وأجلسته بعد إلحاح على المقعد ...

وأطرق الرجل لحظة ، ولكني تبينت في عينيه كلاماً ؛ وفطنت إلى أنه يرتاح لوجود ابنه معي في تلك الآونة إذ يستطيع أن يسمعه ما يرد ويشهدني على قوله ويبتغي شكواه ؛ وزدت وثوقاً من ذلك بما رأيته من اضطراب وغيظ على سلامح ابنه الوجيه .

وتنهد الرجل تنهدة طويلة ثم انطلق يتحدث ولم يكن حديثه إلا شكاة مرة موجعة من هذا الذي أنفق عليه الرجل ماله جميعاً حتى صار إلى ما صار إليه . وذكر لي فيما ذكر والدموع تبلل لحيته البيضاء ، أنه ذهب إلى بيت ابنه في المدينة فأنكر الابن وجوده هناك ، فذهب أبوه يطلبه في مقر عمله فدله عليه بعض الخدم ، فانتحى به الابن جانباً وهو يحاول كتمان غيظه ثم صرفه بعد دقائق ، فما كاد الرجل يبلغ عتبة الحجرة حتى سمع ابنه يقول لزملائه ضاحكا : إن هذا الرجل كان فيما قبل مزارعاً أجيراً عند أسرته وإنه يطلب إحساناً ... وخنقته العبرات لحظة ثم عاد إلى حديثه يسألني : هل يكون ذلك نتيجة التربية ؟ وهل يكون جزاؤه على بيع ما كان يملك في تعليم ابنه أن يقابله بما يقابله به ؟

والتفت أطلب الجواب من الوجيه المتعلم الذي يكره القرية وحياة القرية ، فهالني ما سمعته من عبارات فاجرة أخذ يوجهها إلى الذي كان سبباً في نعمته ، دون أن يستحي ، وكانت أقل تهمة ألصقها بأبيه أنه قد صار شيخاً خرفاً لا يؤاخذ

وبلغ بي الغيظ كل مبلغ فنصحت إلى الرجل أن يرفع إلى القضاء دعواه ، فنظر إليّ نظرة شكر ولكنه قال : « يا بني نضحك علينا البلد ونسمع بنا الناس ؟ لا ، أنا عندي أموت من الجوع ولا يقول الناس إن ابني ناكر للجميل »

وأخذت أسري عن الرجل بما أستطيع من الكلام وقد عزني في هذا الموقف الكلام . كل ذلك وابنه صامت كأنه جماد ، ثم وعدت الشيخ أني سأبذل قصاري جهدي من أجل راحته وودعته مواسياً مشفقاً

وهم ابنه بالانصراف بعده فمددت إليه يدي على كره مني ؛ وجلست وأنا أقول: أيكون بعد ذلك غريباً أن نجهل القرى وحياة ساكني القرى وأن نظل وكأننا بما بيننا وبين هؤلاء المساكين من قطيعة شعبان يعيش أحدهما من كد الآخر ؟ وإذا كان هذا شأن بعض الأبناء مع الآباء فكيف تكون الحال فيمن لا تربطهم بأولئك المساكين بنوة أو قرابة ؟

« هيت »